



يوتوبيا، ديستوبيا: مقابلة مع جورج كلايس

بواسطة فيليب سيمون

الباحث البريول المصطفى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة المولى إسماعيل، مكناس، المغرب

ملخص:

تقدم أصول المصطلحات الأدبية، اليوتوبيا والديستوبيا نظرة نقدية على مجتمعاتنا وأنظمتنا السياسية، سواء كانت جيدة أم سيئة. يستكشف جريجوري كلايس هذه الطبيعة المزدوجة للمفهومين من خلال تتبع تاريخ التطور الدلالي لاستخدامات الفكر الطوباوي.

الكلمات المفتاح: يوتوبيا، ديستوبيا، ظاهرة أدبية، حياة الأفكار، الأيديولوجيا.



Abstract:

Concepts of literary origin, utopia and dystopia offer a critical look at our societies and political regimes, for good or ill. Gregory Claeys explores this dual nature by tracing the history, semantic evolution and uses of utopian thought.

Keywords: utopia, dystopia, literary phenomenon, life of ideas, ideology.



غريغوري كلايس: أستاذ فخري للتاريخ في جامعة لندن. يركز بحثه على حركات الإصلاح السياسي والاجتماعي من تسعينيات القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين، مع إيلاء اهتمام خاص للفكر الطوباوي واشتراكية ما قبل ماركس. أحدث كتاب له هو ماركس والماركسية (Marx and Marxism) (2018). وهو أيضا مؤلف كتاب "البحث عن المدينة الفاضلة: تاريخ الفكرة" Utopia: the History of an Idea (2011)، وكتاب "الديستوبيا: تاريخ طبيعي" Dystopia: A Natural History (مطبوعة جامعة أكسفورد). كتابه التالي، "ما بعد النزعة الاستهلاكية: يوتوبيا لكوكب يحتضر"، After Consumerism: Utopianism for a Dying Planet سيصدر قريبا عن مطبعة جامعة برينستون.

حياة الأفكار: ما هو أصل مفاهيم اليوتوبيا والديستوبيا ؟

غريغوري كلايس (Gregory Claeys): مصطلح "اليوتوبيا" (المدينة الفاضلة) صاغه توماس مور سنة 1514 في كتابه المسمى يوتوبيا (*Utopia*). وذلك للإشارة إلى "مكان غير موجود"، ولكنه أيضا تلاعب بتعبير الكلمات مع مصطلح "eutopia"، والتي تعني "المكان الجيد" باللغة اليونانية. أما بالنسبة لمصطلح "ديستوبيا" (*dystopie*)، فقد ساد الاعتقاد، لزمان طويل، بأن جون ستوارت ميل هو أول من صاغ هذا المصطلح عام 1868 عندما استخدمه خلال مناقشاته في البرلمان البريطاني¹. ومع ذلك، فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن هذه الكلمة ظهرت في الواقع في عام 1747. في الأول تمت تهجئتها "dustopia" ثم في العام الموالي صارت لها تهجئتها الحالية. ثم صارت تعني "بلد غير سعيد"². لكن هذه الكلمة لم تدخل اللغة اليومية المتداولة حتى خمسينيات القرن العشرين، في سياق تميز بالحرب الباردة، والخوف من صراع نووي، ونجاح رواية 1984 لجورج أورويل. في اللغة الإنجليزية، منذ حوالي خمسة قرون، كانت كلمة "طوباوية" مرادفة لكلمة "مستحيل"، ويشير مفهوم "الطوباوية" إلى جميع الأشكال التي يمكن أن يتخذها البحث عن مجتمع مثالي. "ديستوبيا"، "ديستوبي" بمعنى "كثير" أو



"متراجع" أو "مخيف" أو "استبدادي"، كانت معاني شائعة منذ منتصف القرن العشرين. ونادرا ما استخدم مصطلح "ديستوبيا".

حياة الأفكار: على الرغم من جذورها في تقليد أدبي طويل، فقد اكتسبت اليوتوبيا والديستوبيا على مر القرون دلالات سياسية أكثر من أي وقت مضى، مع أعمال مثل أتلانيس الجديدة لفرانسيس بيكون (1627). كيف تفسر هذا التطور؟

جريجوري كلايس (Gregory Claeys): المصطلحان معا يميلان منذ البداية معنى سياسيا عميقا. في الواقع، تصف المدينة الفاضلة حالة مثالية (أو على الأقل أفضل حالة ممكنة)، والتي نعثر على جذورها في جمهورية أفلاطون. من ناحية أخرى، تصف الديستوبيا عكس هذا المثل الأعلى، غالبًا في شكل استبداد. فكرة أفلاطون مستوحاة من جزيرة كريت وإسبرطة، وهذا يعني أن المؤسسات الطوباوية (بالمعنى الواسع للمصطلح) يمكن أن توجد في واقعنا. يستخدم مصطلح "eutopie" أو "مكان جيد" أحيانا للإشارة إلى مثل هذا الاحتمال.

يمكننا الحديث عن المزيد من التطور نحو المزيد من المعاني السياسية، ولكن فقط إذا فهمنا الطوباوية (وليس اليوتوبيا) كظاهرة أدبية بشكل أساسي، إذا لم يكن حصريا. من ناحية أخرى، إذا اعتبرنا أن هذا المفهوم يتركب من ثلاث مكونات؛ الأول أدبي، والثاني أيديولوجي، والثالث للبحث عن مجتمعات بديلة أسستها حركات سياسية مختلفة، فإننا نفهم أن النقاشات حول اليوتوبيا والديستوبيا قد انجذبت على الدوام نحو هذه الأقطاب الثلاثة، وهذا منذ العصور القديمة اليونانية. ومن الأمثلة على ذلك يوتوبيا مور بالطبع، وأيضا "مدينة الشمس" (1602) لتوماسو كامبانيا أو "أتلانيس الجديدة" لفرنسيس بيكون.

ربما يرتبط التطور الأكثر دلالة بالتحول من الطوباوية الدينية إلى أشكال أكثر علمانية منذ عصر التنوير. مرور الوقت، توقفنا عن النظر إلى العصر الذهبي كان موجودا في الماضي أو في الأماكن التي يصعب الوصول إليها (مثل دولة جزيرة يوتوبيا)، للتطلع إلى المستقبل، خاصة في العام 2440 من قبل لويس سيبياستيان مرسيه



(1771). يمكن فهم هذه العملية من منظور العقيدة الألفية العلمانية، وهي إطار يتم فيه التعبير عن الموضوعات الدينية، مثل نهاية العالم وعودة المسيح، وفقا لخطاب علماني. غالبا ما ترتبط الماركسية والعديد من التيارات الاشتراكية الأخرى بهذا الاتجاه. من الآن فصاعداً، أصبح الإيمان بكمال الطبيعة البشرية مرتبطا بالمثل الثورية وإلغاء الملكية الخاصة، عوض أن يكون شكلا من أشكال التدخل الإلهي.

حياة الأفكار: غالبًا ما توصف الحركات الاشتراكية الأولى، التي ظهرت في بداية القرن التاسع عشر، بأنها "طوباوية"، على الرغم من أنها كانت حركات سياسية حقيقية للغاية، نفذت برامج إصلاحية ملموسة. كيف يمكن تمييز هذا الصنف بدقة؟

غريغوري كلايس (Gregory Claeys): في البيان الذي أصدره الحزب الشيوعي سنة 1848، وصف كل من ماركس وإنجلز الاشتراكيين الأوائل بأنهم "طوباويون" في المقام الأول، لأن هؤلاء الأسلاف، وفقا لهم، كانوا يفتقرون إلى المعنى العملي. لم يدافعوا عن الحاجة إلى ثورة بروليتارية كطريق ملكي لمجتمع جديد، بل على العكس من ذلك اقترحوا "اثنى عشر إصدارا للقدس الجديدة" و "قلاع في إسبانيا" وصور أخرى من أحلام الدولة المثالية، مع الاعتماد على النوايا الحسنة للطبقات البرجوازية لتحقيق هذا الوهم. تم تعريف بديلهم، المسمى "الاشتراكية العلمية"، بشكل خاص في الأيديولوجيا الألمانية (1845-6)، التي نشرت بعد انحلال الحزب سنة 1932. وفي عمل إنجلز المتأخر، الاشتراكية الفاضلة والاشتراكية العلمية (1880) كان الأمر يتعلق بتبني منظور مادي، متأصل في التاريخ والاقتصاد السياسي، خال من جميع أشكال المثالية والدين.

التناقض بين الاشتراكية "الطوباوية" و "العلمية" يمثل مشكلة من ثلاثة جوانب على الأقل؛ بداية، طور العديد من الاشتراكيين الأوائل، مثل روبرت أوين وأتباعه، نظرية لأزمة الرأسمالية مشابهة جدا لما تبناه إنجلز، ثم ماركس في أربعينيات القرن التاسع عشر. كما قدم أوين انعكاسا لمفهوم الاغتراب، الذي يفهم على أنه تبادل ناتج العمل مقابل أجر غير عادل. علاوة على ذلك، كان هؤلاء الاشتراكيون الأوائل في كثير من الأحيان ديمقراطيين



راديكاليين، قاموا بحملات من أجل حق الاقتراع العام للذكور كوسيلة لإصلاح الهياكل الاقتصادية والاجتماعية بشكل أساسي. في فرنسا، نجح إتيان كاييه في بناء حركة سياسية مهمة. لقد زعموا أن المجتمع المستقبلي سيحسن سلوك الأفراد بشكل كبير من خلال إلغاء الملكية الخاصة. في عالم الغد هذا، ستوضع العلاقات الإنسانية تحت علامة التضامن، أو ازدياد التواصل الاجتماعي. ثالثاً، كانت اشتراكيتهم "العلمية" تعني ضمناً أن مسيرة التاريخ والاقتصاد السياسي تميل نحو السقوط الحتمي للرأسمالية، في نهاية الأزمات نفسها التي أعقبتها ثورة بروليتارية، الكثير من الأحداث لم تحدث.

حياة الأفكار: غالباً ما تفهم الديستوبيا على أنها "مدينة فاضلة مضادة"، أو على أنها مدينة فاضلة

أخطأت. ما هي الاختلافات بين هذين المفهومين، وكيف يتم التعبير عنهما؟

غريغوري كلايس (Gregory Claeys): تصف اليوتوبيا الأدبية أحياناً انحسار اليوتوبيا. المثال الرئيسي

هو 1984 لجورج أورويل، التي نشرت عام 1949. إنها هجاء للستالينية وليس للاشتراكية بشكل عام، كما يعتقد غالباً، لأن أورويل ظل اشتراكياً مخلصاً حتى وفاته عام 1950. لكن العديد من الديستوبيات، بما في ذلك تلك التي تغطي نوع ما بعد نهاية العالم الذي أصبح شائعاً جداً في العقود الأخيرة، تصور المجتمعات المحتضرة، حيث يحاول عدد قليل من الناجين، الذين يتم تشجيع القراءة على التعرف عليهم، على محاولة الصمود. في كثير من الأحيان، يكون التحليل الأساسي لأسباب هذا الانحدار غائباً عن العمل، أو يتم تقديمه في شكل تلميحات غير واضحة. يعد طريق كورماك مكارثي (2006) مثلاً على هذا النوع، بينما تقدم إميلي سانت جون ماندل في "الحطة الحادية عشرة" (2014) للقراء سرداً لقصة وباء من المؤكد أنه سيحدث في عام 2021.

ومع ذلك، فإن مفاهيم اليوتوبيا والديستوبيا تحافظ على علاقة معقدة. اليوتوبيا، سواء كانت أدبية أو أيديولوجية، لا تتحول كلها إلى ديستوبيا. الديستوبيا ليست دائماً يوتوبيا فاشلة. تحتوي اليوتوبيا أحياناً على عناصر بائسة، للمجموعة ككل أو لجزء صغير من السكان، عندما يقوم النظام على استغلال هذه المجموعة لصالح الآخرين



(كما هو موضح، في 1984، من خلال الانقسام بين أعضاء الحزب الداخلي والبروليتاريا). على العكس من ذلك، يمكن أن تحتوي الديستوبيا على عناصر طوباوية عندما تصبح مساحات معينة بمثابة ملاجئ من المجتمع الديستوبي ككل. أحد الأمثلة على ذلك هو "محمية الهمج" في عالم جديد شجاع لألدوس هكسلي (1932)، حيث يحكم على المنشقين بالنفي إلى الجزر. في الحقيقة، منذ أفلاطون، كانت جميع الكتابات الطوباوية جزءاً من هذا التقليد الأدبي الواسع، للحوار معها بطريقة نقدية، وهكذا نجد في المزيد من أصداء الجمهورية وإسبرطة والتقاليد المسيحية. نفس الشيء ينطبق على إدوارد بيلامي (مائة عام بعد عام 2000 أو 1888)، الذي يستشهد بتوماس كارلايل، وأوغست كونت، والاشتراكية، ومرة أخرى، المسيحية. كما أثر بيلامي وأفلاطون بعد ذلك على إتش جي ويلز، الذي سيتم دمجهم هو أيضاً في كتابات أوروبيل، هذا الأخير يستلهم أيضاً من الاشتراكية، بينما يدمج هكسلي عناصر من البلشفية وعلم تحسين النسل في عمله.

حياة الأفكار: يعرف عامة الناس مفهوم الديستوبيا من خلال ارتباطه بالأنظمة الشمولية في القرن

العشرين. هل يمكننا التحدث عن أيديولوجيا ديستوبية؟

غريغوري كلايس (Gregory Claeys): مرة أخرى، الأمر كله يتعلق بالتعريف. إذا افترضنا أن المجتمع

الديستوبي يتميز بأشكال متطرفة من عدم المساواة والاستغلال، فمن المحتمل أن تسمى أي أيديولوجية عنصرية وإمبريالية بالديستوبيا. ينطبق الشيء نفسه على الرأسمالية، بقدر ما لديها من نزعة متأصلة في تعزيز الاستغلال.

بموجب قواعد التناسب، يكون أي مجتمع بائساً عندما يتم استغلال الأغلبية من قبل النخبة - وهي قاعدة تنطبق بالتالي على الرأسمالية. ولكن لم توجد هناك أيديولوجية "ديستوبية" على الإطلاق.

حياة الأفكار: كيف يمكن أن تساعدنا اليوتوبيا والديستوبيا في التفكير في الأزمات العالمية الكبرى،

مثل تغير المناخ أو الوباء الحالي؟



غريغوري كلايس (Gregory Claeys): هذان المفهومان مفيدان للغاية لمساعدتنا على معرفة ما نحن فيه، وكيف وصلنا إلى هنا، والطريق الذي يفتح لنا. تهدف اليوتوبيا إلى تصور المستقبل على المدى الطويل، وتقديم تنبؤات، أدبية ونظرية، لما يجتبه لنا المستقبل. من خلال القيام بذلك، تقدم لنا اليوتوبيا رؤية بديلة، فهي تلمح إلى عالم أفضل بكثير يمكننا الوصول إليه - حتى لو كانت تسخر أحيانا من عدم قدرة البشر على الوصول إلى وجهتهم. إن الحكم الطويل للرأسمالية والنزعة الاستهلاكية الجماعية تستند إلى مثال طوباوي، وهو الرخاء العالمي، وهو هدف بعيد المنال إذا كان هناك هدف على الإطلاق، طالما أن موارد كوكبنا لا تتكيف مع عدد غير محدد من البشر. يظهر جرد واقعي لوضعنا البيئي أنه منذ منتصف القرن العشرين، دخلنا حقبة من الاحتباس الحراري غير المسبوق. سترتفع درجة الحرارة بلا شك بمقدار 3 درجات مئوية بحلول عام 2050، مما سيؤدي إلى انقراض العديد من أشكال الحياة على الأرض، بما في ذلك، على الأرجح، البشرية. لذلك نحن نواجه أسوأ سيناريو ديستوبي تم تصوره على الإطلاق، حتى لو كان هناك شعور بقلق مماثل إلى حد ما بالقلق الذي وجد بالفعل في منتصف القرن العشرين، عندما تخيلنا كيف ستكون الحياة في أعقاب حرب نووية شاملة. ومع ذلك، يمكن تصور حل مثالي لهذه الكارثة البيئية الشديدة، يدور حول مجموعة من المثل العليا مثل التنمية المستدامة والاستهلاك العقلاني والتحكم في التوسع الديموغرافي. يمكن لمثل هذه "الحالة المستقرة" أن تعوض عن الانخفاض في الاستهلاك الفردي بأشكال جديدة من التواصل الاجتماعي المدني، على سبيل المثال حد أدنى عالمي للأجور، وغير ذلك من التدابير الأخرى التي تهدف إلى تقليل نسبة النمو. إنه تحد كبير، لكنه في رأبي البديل الوحيد الممكن للمصير الرهيب الذي ينتظرنا على المدى القصير. تحمل بعض اليوتوبيا الأدبية أيضا مثل هذا البديل: على سبيل المثال، كتاب كيم ستانلي روبنسون الأخير، وزارة المستقبل "The Ministry of the Future" (2020).

الهوامش:

¹ - UK Parliamentary Debates, Londres, Hansard, 12 mars 1868, p. 1517, colonne 1.



² - Anon [Lewis Henry Young], *Utopia : or Apollo's Golden Days*. Dublin, George Faulkner, 1747. Voir l'ouvrage de Deirdre Ni Chuanacháin, *Utopianism in Eighteenth-Century Ireland*. Cork, Cork University Press, 2016.